بلاغة أسلوب الالتفات في الخطاب القرآني

(دراسة في المفهوم والوظيفة)

د/ زينب دوادي ، أ/ يحيى بن مخلوف

جامعة باتنة

الملخص :

تهدف هذه الدارسة البلاغية إلى إبراز جمالية وبلاغة أسلوب الالتفات كفن متميز له بلاغته المتفردة، ويتجلى هذا التفرد في الخطاب القرآني، إذ أن للالتفات تأثيرا نفسيا، يستولي على عقل المتلقي ووجدانه بالتحول والانتقال من أسلوب إلى أخر(من الغيبة إلى الخطاب أو العكس في الالتفات الضمائري، والتحول من الماضي إلى المستقبل أو العكس في الالتفات الفعلي) وهذا الانصراف الذي يميز هذا الأسلوب يجعل الملتقى ينتبه إلى خصوصية الخطاب ومدى فاعليته فيصغي ومن ثم يستجيب. وإن لهذا الأسلوب دلالاته وإغراضه البلاغية التي تعطي الكلام بلاغة وبعدا دينيا تذعن له القلوب والعقول في آن واحد فتتجلى فاعلية الرسالية القرآنية من خلال هذه اللغة المتفردة.

Abstract:

The aim of this rhetoric study is to highlight the beauty and eloquence of converting the context, as a unique art, with his special eloquence, reflected in the uniqueness of the Quranic discourse.

It had a psychological impact, dominates the mind of the recipient, by the transition from a style to another; from absence to presence, or vice versa, in the prepositional converting, and the transition from the past to the future, in the actual converting.

This reverse pushes the receiver to pay attention to the specifity of the discourse and its effectiveness. So, he will listen and then respond. This method had its rhetorical connotation and purposes, which gives the speech its eloquence and religious dimensions, that what affects hearts and minds at the same time. This will highlight the effectiveness of the Quranic message, thought this unique language.

تمهيد:

إن الالتفات ظاهرة بلاغية، تبرز بوضوح في القرآن الكريم ولدلالاته النفسية وأغراضه البلاغية تجلت فاعليته اللغوية التأثيرية ضمن الخطاب القرآني وهذا ما من شأنه إثراء الدراسات البلاغية القرآنية، إذ أن بلاغة القران الكريم لا تنحصر في الجمال وعمق المعنى، بل تتعداه إلى أساليب لم تعط حقها من الدراسة كالالتفات فمثلا إذ يوجه هذا الأسلوب القاريء وكذا المتلقي إلى معاني ضمنية وأغراض بلاغية، وطريقة تعبيرية فيها جدة وإبداع وذلك من خلال التوظيف الأدبي، والبلاغي لهذا الأسلوب احتذاء بما ورد في النص القرآني، وقد تضمن البحث العناصر الآتية:

1. التعريف بالالتفات لغة واصطلاحا.
2. إيراد نماذج للالتفات الضمائري ألقراني.
3. إيراد نماذج للالتفات الفعلي ألقراني.
4. أغراض و دلالات الالتفات القرآني.

مفهوم الالتفات لغة:

الالتفات مأخوذ من التفت التفاتا، و"التلفت" أكثر منه وتلفت إلى الشيء، التفت إليه،صرف وجهه إليه، ويقال لفتُّ فلانا عن رأيه، أي صرفته عنه، ومنها "الالتفات" "[2] وقد – وقد وردت لفظة "الالتفات" في موضعين من القرآن الكريم".

الموضع الأول: قوله تعالى:"لا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك"[3]، فـ"الالتفات هنا بمعنى "التخلف" أي لا يتخلف أو لا ينظر وراءه[4]، ففي النص القرآني أمر بترك التلفت لحكمة ربانية سامية، تنجيهم من العذاب.

---

[2]. ابن منظور (جمال الدين بن مكرم الأنصاري)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، مادة "لفت".
[3]. سورة هود، الآية 81.

والموضع الثاني جاء في قوله تعالى:قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا"[5]، واللفت هنا بمعنى الصرف إذ أن عبارة "لتلفتنا" هي بمعنى "لتصرفنا واللفت والفتل أخوان ومطاوعهما الالتفات والانفتال"[6].

وجاء في أساس البلاغة للزمخشري:التفت إليه وتلفت، ومنه قول الشاعر:

تلفت نحو الحي حتى وجدتني وجعت من الإصغاء ليتا وأخدعا

ومنه رجل ألفت: أحول، تيس ألفت: "ملتوى القرنين" ومن المجاز لفته عن رأيه: صرفته[7].

وذكر ابن فارس أن اللام والفاء، والتاء كلمة واحدة تدل على اللي وصرف الشيء عن جهته المستقيمة، ومنه لفت الشيء : لويته، ولفت فلانا عن رأيه: صرفته، والألفت الرجل الأعسر ومنه الالتفات: وهو أن تعدل بوجهك[8]، كما أشار ابن الأثير إلى معنى الالتفات في اللغة فقال:"وحقيقته مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشماله فهو يقبل بوجهه تارة كذا وتارة كذا"[9].

ومما سبق من ايراد المعاني اللغوية الالتفات نجد أنه يدل على الصرف واللي والفتل، غير أن هذا المصطلح له معان أخرى كالقبض والأكل والمزج والخلط والنظر، وقد اتخذت هذه المعاني اللغوية وجهات شتى في البلاغة العربية، إذ اتصلت بالجهد والقوة والسلب والإيجاب وبالاستجابة النفسية والسلوك

---

4. الزمخشري، الكشاف، دار إحياء التراث العربي ،بيروت، ج4، ص 284.
5. سورة يونس، الآية 78
6. الزمخشري، الكشاف، ج2، ص 247.
7. الزمخشري، أساس البلاغة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2001، ص 677.
8. ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، دار إحياء التراث العربيـ بيروت، ط1، 2001، ص 923.
9. ابن الأثير، المثل السائر، قدمه وعلق عليه أحمد الحوفي و بدوي طبانة، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ج2، ص 135.

الإنساني، لأنها حملت معنى الجهد والقوة والمعاناة والمكابدة وشدة الاعتصار والمكابدة[10].

وعموما فإن المادة المعجمية لمفهوم الالتفات يتمحور حول الصرف والتحول.

المفهوم الاصطلاحي للالتفات(حسب آراء البلاغيين):

الالتفات فن بلاغي متميز في علم البلاغة العربية، ولم يتفق علماء البلاغة على تحديد مفهومه، وقد فسر الزركشي إشارة ابن المعتز، وهي أن "الالتفات: هو الانتقال والانصراف عن معنى يكون فيه معنى آخر أوهو تعقيب الكلام جملة مستقلة ملاقية له في المعنى على طريق المثل أو الدعاء"[11].

فالأول كقوله تعالى:"وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا"[12]، الثانية كقوله تعالى:"ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم".وذكر جمهور البلاغيين أن شرط الالتفات أن يكون في جملتين أي كلامين مستقلين، وقد أشار الزمخشري إلى هذا الشرط في الكشاف[13].

كما أورد فخر الدين الرازي الالتفات ضمن أقسام النظم عادا إياه الوجه الخامس، وذكر ذلك قائلا:"قيل إنه العدول من الغيبة إلى الخطاب، وبالعكس، فالأول قوله تعالى "مالك يوم الدين إياك نعبد"[14]، والثاني قوله تعالى:"حتى إذا

---

[10]. مازن موفق صديق الحيرو، الإعجاز البلاغي في الخطاب القرآني، مكتبة دار البيان، ط1، 2010، دمشق، سوريا، ص11أ

[11]. الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، مطبعة البابي الحلبي، ط2، 1973، ج3، ص 335.

[12]. سورة الإسراء، الآية 81.

[13]. سورة التوبة، الآية 127.

[14]. طالب محمد اسماعيل الزوبعي، من أساليب التعبير القرآني، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1996، ص 91.

كنتم في الفلك وجرين بهم"[15]، "وقيل هو تعقيب الكلام بجملة تامة ملاقية إياه في المعنى ليكون تتميما له على جهة المثل، أو غيره.." [16].

ومن أوائل العلماء الذين تناولوا مفهوم الإلتفات وإن لم يصرح بلفظه: أبو عبيدة (ت 210 هـ) وقد أطلق على عموم مباحث البلاغة العربية تسمية المجاز"، وعد عملية التحول بين أنماط الضمائر مجازا، بقوله:"ومن المجاز ما جاءت مخاطبة الشاهد ثم تركت وحولت إلى مخاطبة الغائب"، ومن مجاز ما جاء خبره عن غائب ثم خوطب الشاهد"[17]، كقوله تعالى:"ثم ذهب إلى أهله يتمطى أولى لك فأولى"[18].

وتناول المبرد (ت 285 هـ) الالتفات عند تحليله لبعض الآيات القرآنية بقوله:"كانت المخاطبة للأمة ثم صرفت إلى النبي صلى الله عليه وسلم- إخبارا عنهم"[19]، وذلك في قوله تعالى:"حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة"[20].

واعتبر المبرد أن التحول الحاصل بين "الضمائر" – من الغيبة إلى الخطاب أو من التكلم إلى الغيبة- صرفا مما جعل البلاغيين يطلقون مصطلح الصرف على الالتفات ويتوافق ابن المعتز (ت 296 هـ) مع هذا المنحى كذلك إذ يقول عن الالتفات أنه :"هو انصراف المتكلم من المخاطبة إلى الإخبار، وعن

---

[15]. سورة الفاتحة، الآية 4، 5.

[16]. فخر الدين الرازي، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق سعد سليمان حمودة، دار المعرفة الجامعية، كلية الآداب، جامعة الاسكندرية، 2003، ص 152.

[17]. أبو عبيدة، مجاز القرآن، مكتبة الخانجي ، مصر ،ج1، ص 11.

[18]. سورة القيامة (33، 34).

[19]. المبرد، الكامل في اللغة العربية والأدب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم و السيد شحاته، دار نهضة مصر للطباعة و النشر 2003 ،ج3، ص 22-23

[20]. سورة يونس، الآية 22.

الإخبار إلى المخاطبة وما يشبه ذلك، ومن الانصراف عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر"[21].

وهذا ما يدعونا إلى فهم أسلوب الالتفات إلى أنه تحول في اللفظ والمعنى، وخاصة حين الانتقال من المباشرة في التعبير إلى غير المباشر فيه، ويؤيد هذه الفكرة الكفوي في كتابه "الكليات" إذ يذكر أن الالتفات هو:"نقل معنوي لا لفظي فقط"[22]، وكل زيادة في المبنى تستدعي زيادة أو تغييرا في المعنى.

وقد تناول ابن المعتز الالتفات ضمن حديثه عن البديع فيما سماه "محاسن الكلام"، وكان الالتفات هو أول تلك المحاسن عنده بما يوفره من ايماء وايحاء للمخاطب الذي يجب أن يكون لديه قدر من النباهة ومتابعة الكلام ليكون التواصل وفق هذا الأسلوب ممكنا.

أما قدامة بن جعفر (ت 337 هـ)، فيقول عنه "ومن نعوت المعاني الالتفات، وهو أن يكون الشاعر آخذا في معنى فكأنه يعترضه إما شك فيه أو يظن بأن رادا يرد عليه قوله، أو سائلا يسأله عن سببه، فيعود راجعا إلى ما قدمه فإما يؤكده أو يذكر سببه أو يحل الشك فيه"[23].

ويتضمن هذا التعريف توصيفا لقيمة الالتفات إذ يذكر السكاكي في مفتاح العلوم أن "قيمة الالتفات من الناحية المعنوية وصلتها بالنفس الإنسانية، من افتراض السائل في سؤاله، وتقديم الجواب عن السؤال أو إحلال الشك مكانه"[24].

---

[21]. ابن المعتز، كتاب البديع، انمثاطيوس كراتشفوفسكي، دار الميسرة، ص 58.
[22]. الكفوي، الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية)، مؤسسة الرسالة ، ص 170.
[23]. قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ت: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، ص 167.
[24]. أبو يعقوب السكاكي، مفتاح العلوم، مطبعة مصطفى بابي الحلبي، ص 95.

ويتفرع مفهوم الالتفات عند أبي هلال العسكري فيقسمه إلى ضربين: فواحد أن يفرغ المتكلم من المعنى فإذا ظننت أنه يريد أن يتجاوزه يلتفت إليه فيذكره بغير ما تقدم ذكره به ... والضرب الآخر أن يكون الشاعر آخذا في معنى وكأنه يعترضه شك، أو ظن أن رادا يرد قوله أو سائلا يسأله عن سبب فيعود راجعا إلى كما قدمه، فإما أن يؤكده، أو أن يذكر سببه، أو يزيل الشك عنه"[25].

وقد قدم أبو هلال شواهد:"شعرية معبرة عن الالتفات ضمن المصنف، ومن أمثلتها، قول الرماح بن ميادة:

فلا صرمه يبدو وفي اليأس راحة ولا وده يصفو لنا فنكارمه

وكأنه يقول :"وفي اليأس راحة" والتفت إلى المعنى لتقديره أن معارضا يقول له:"وما تصنع بصرمه؟" فيقول:"لأنه يؤدي إلى اليأس، وفي اليأس راحة".

وكذا استشهد بقول جرير أو ما يطلق عليه الأصمعي التفاتات جرير:

أتنسى إذ تودعنا سليمى بعود بشامة سقي البشام[26]

ألا تراه مقبلا على شعره، ثم التفت إلى البشام فدعا له[27].

فقد بسط العسكري حديثه عن الالتفات، مضيفا هذا التقسيم وخاصة ما تعلق بالانتقال من معنى إلى معنى آخر ثم يعود إلى المعنى الأول ملتفتا إليه.

ويرى السكاكي (ت 626هـ) أن الالتفات يدرج ضمن علم المعاني في البلاغة العربية، إذ يقول:"واعلم أن هذا النوع أعني نقل الكلام من الحكاية إلى الغيبة لا يخص المسند إليه ولا هذا القدر، بل الحكاية والخطاب والغيبة ثلاثتها

---

[25]. أبو هلال العسكري، الصناعتين، ت، علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1986، ص 392.

[26]. البشام: شجر ذو ساق وأفنان وورق ولا ثمر له، المصدر نفسه، ص 392.

[27]. المصدر نفسه، ص 392-393.

بنقل واحد منها إلى الآخر، ويسمى هذا النقل التفاتا عند علماء المعاني، والعرب يستكثرون منه، ويرون الكلام إذا انتقل من أسلوب إلى أسلوب أدخل في القبول عند السامع، وأحسن تطرية لنشاطه، وأملا باستدرار إصغائه، وهم أحرياء بذلك، ... وإن الكلام المفيد عند الإنسان يكون بالمعنى لا بالصورة أشهى غذاء لروحه وأطيب قرى لها"[28].

وبذلك فإن عملية التحول والانتقال بين الضمائر في أسلوب الالتفات عند السكاكي مما يؤدي إلى تمكين المعنى، وتوثيق التواصل، "لأن الكلام عندما ينطوي على تعديل معين في أسلوب مخاطبته للمتلقي يؤدي إلى تحريك نشاط السامع وإيقاظه"[29].

ولم يكتف السكاكي بإدراج الإلتفات ضمن علم المعاني، وإنما صنفه كذلك ضمن علم البديع، دون أن يفصل فيه القول، مردفا بالعبارة الآتية:"ومنه الالتفات وقد سبق ذكره في علم المعاني"[30].

كما تناول ابن الأثير (ت 637 هـ) الالتفات في كتابه المثل السائر، من ناحية أنه خلاصة علم البيان التي حولها يدندن، وإليها تستند البلاغة، وعنها يعنعن، و حقيقته مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشماله، فهو يقبل بوجهه تارة كذا، وتارة كذا، وكذلك يكون هذا النوع من الكلام، خاصة لأنه ينتقل منه من صيغة إلى صيغة أخرى، كالانتقال من خطاب حاضر إلى غائب، أو من غائب إلى حاضر، أو من فعل ماض إلى مستقبل، أو من مستقبل إلى ماض[31].

---

[28]. السكاكي، مفتاح العلوم، ص 95.

[29]. ناظم عوده خضر، الأصول المعرفية النظرية التلقي، دار الشروق للنشر، ص 70.

[30]. السكاكي، مفتاح العلوم، ضبطه و علق عليه نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ص 202.

[31]. ابن الأثير، المثل السائر، ج2، ص 135.

وأسلوب الالتفات من بديع فنون البلاغة، وهو ملمح من ملامح النظرية الأسلوبية الحديثة، وهو على المستوى الفني من الظواهر التي تتحكم في الأساليب بصيغة الحضور الفاعل والمؤثر، وكأن الالتفات يحقق الاستجابة الطبيعية لنزوع الإنسان إلى التنوع والتجديد في أساليب تعبيره وصيغ كلامه"[32].

وحسب رأي ابن الأثير فإن هذه الآلية البلاغية والإبلاغية في آن، تساعد على التنويع في الخطاب باستعمال الضمائر والأزمنة، وذلك لتحقيق التفاعل بين المبدع والمتلقي، وهذا الاختلاف والتحول بين الضمائر و الأزمنة يضع المستمع وسط الأحداث فيتفاعل معها بدلا من شعوره بالملل من ضمير واحد، وزمن واحد، ومن ثم فإنه قسم الالتفات إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: في الرجوع من الغيبة إلى الخطاب ومن الخطاب إلى الغيبة للتفنن في الكلام والانتقال من أسلوب إلى أسلوب تطرية لنشاط السامع، وإيقاظا للإصغاء إليه"[33].

ونلاحظ هذا المقصد من توظيف الالتفات في التعبير يتفق فيه ابن الأثير وكذا السكاكي والزمخشري من حيث أنه وسيلة من وسائل التأثير في المتلقي وجعله يتفاعل مع محتوى الخطاب.

أما القسم الثاني: فيتمثل في الرجوع من الفعل المستقبل إلى فعل الأمر، وعن الفعل الماضي إلى فعل الأمر.

والقسم الثالث: في الإخبار عن الفعل الماضي بالمستقبل وعن المستقبل بالماضي[34].

---

[32]. مازن موفق صديق الخيرو، الإعجاز البلاغي في الخطاب القرآني، (الالتفات أنموذجا)، ص 05.
[33]. ابن الأثير، المثل السائر، ج2، ص 136
[34]. المصدر نفسه، ج2، ص 135- 136

فالقسم الأول إذن اختص بالالتفات الضمائري بينما اختص القسم الثاني والثالث بالالتفات الزمني.

وتفرد ابن الأثير بإضافته الالتفات الزمني أو الفعلي، مما يعني أنه وسع مفهوم الالتفات وطوره عن سابقيه ويصف الالتفات "بالذوق المدرب" إذ أن الانتقال من صيغة إلى صيغة أخرى مرتبط بالمعنى، والمعاني متشبعة ولا نهاية لها، وبهذا ربط ابن الأثير الالتفات بالأغراض النفسية، والمقاصد الاجتماعية، كما أطلق على الالتفات تسمية "شجاعة العربية" وقد سبقه ابن جني إلى هذه التسمية [35].

أما حازم القرطاجني (ت 684 هـ) فقد تناول الالتفات واصفا إياه بالانعطاف إذ يقول: "اعلم أن الانعطاف بالكلام من جهة إلى أخرى أو من غرض إلى آخر، لا يخلو من أن يكون مقصودا أولا، فيذكر الغرض الأول لأن يستدرج منه إلى الثاني، وتجعل مآخذ الكلام في الغرض الأول صالحة مهيأة لأن يقع بعدها الغرض الثاني موقعا لطيفا، وينتقل من أحدهما إلى الآخر انتقالا مستطرفا، أو لا يكون قصد أولا في غرض الكلام الأول أن يجعل ذكره سببا لذكر الغرض الثاني ولا توطئه للصيرورة إليه، والاستدراج إلى ذكره، بل لا ينوي الغرض الثاني في أول الكلام، وإنما سنح الخاطر سنوحا بديهيا، ويلاحظه الفكر المتصرف بالتفاتاته إلى كل جهة ومنحى من أنحاء الكلام، فما كان من قبيل هذا القسم الثاني فانه الذي يعرف بالالتفات [36]

ويتوسع حازم القرطاجني في معنى الالتفات من مجرد التحول من ضمير إلى آخر أو من فعل إلى آخر، إلى معنى اشمل فيعبر بمصطلح الصورة

[35]. مازن موفق صديق الخيرو، الإعجاز البلاغي في الخطاب القرآني، ص 20-21

[36]. حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ت محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الكتب الشرقية، ص 314

الالتفاتية قائلا: "والصورة الالتفاتية هي أن يجمع بين حاشيتي كلامين متباعدي المآخذ والأغراض، وأن ينعطف من أحدهما إلى الأخرانعطافا لطيفا من غير واسطة تكون توطئة، للصيرورة من أحدها إلى الآخر على جهة من التحول... وأصناف الالتفاتات كثيرة ... وأكثر ما يعني المتكلمون في البديع، من ضروبه ثلاثة أصناف وهي:

1. مما أوهم ظاهرة أنه كريه، وهو مستحب في الحقيقة فيلتفت الشاعر الى ذكر ما يزيل ذلك، نحو قول عوف بن محلم :

إن الثمانين وبلغتتها قد أحوجت سمعي إلى ترجمان[37]

2. الثاني أن يلتفت الشاعر عند ذكر شيء إلى ماله في نفسه من غرض جميل أو غير ذلك، فيصرف الكلام إلى جهة ذلك الغرض نحو قول جرير :

طرب الحمام بذي الاراك فهاجني لازلت في غلل وايك ناضر

3. والثالث أن يلتفت إلى نقض خفي داخل عليه في مقصد كلامه او يخشى تطرق النقض اليه، فيحتال في ما يرفع النقض ويزيل التطرق، ويشير إلى ذلك متلقيا كقول طرفه :

فسقى ديارك غير مفسدها صوب الربيع وديمة تهمى

وقول ابن المعتز:

صببنا عليها ظالمين سياطنا فطارت بها أيد سراع وأرجل[38]

---

[37]. البيت من قصيدة قالها عوف بن محلم الشيباني لعبد الله الطاهر، ذلك أن عبد الله دخل عليه وسلم فلم يجبه عوف، ولما اعلم بذلك دنا منه وانشده هذا البيت من قصيدة قالها مطلعها:

يا ابن الذي دان له المشرقان طرا وقد دان له المغربان

نقلا عن: منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني، ص 315

[38]. المصدر نفسه، ص 316

ويعلل القرطاجني هذا التنوع والتحول في استخدام الضمائر في الخطاب الالتفاتي من خلال السأم الذي ينتاب المتحدث حين يستمر طويلا مستعملا ضميرا واحدا دون تغيير بينما التنويع في توظيف الضمائر يعطي للكلام حيوية وتجددا.

ووافق العلوي (ت 749هـ) ابن الأثير في إعطاء القيمة الفنية الالتفات في الكلام العربي عامة وفي علوم البلاغة العربية خاصة، حيث قال: "اعلم أن الالتفات من أجل علوم البلاغة وهو أمير جنودها، والواسطة في قلائدها وعقودها"[39].

كما قسم الالتفات إلى ضربين اثنين، تراوح فيهما بين التخصيص والتعميم، ففي النظر إلى الالتفات بوجه خاص بجعله مقتصرا على نمط الضمائر وتحولاته بين الخطاب والغيبة، والغيبة والخطاب...، وأما النظرة التعميمية عنده لهذا الفن فهو يراه نوعا من الاتساع في الكلام ولشمولية دلالاته الظاهرة، ويبرز ذلك بقوله: "الالتفات معناه في مصطلح علماء البلاغة العدول من أسلوب في الكلام إلى أسلوب آخر مخالف للأول"[40]

وما سبق ذكره من آراء وحدود وقف عندها علماء البلاغة، فان أهم مفهوم اتفقوا على إيراده هو أن الالتفات انتقال وتحول من أسلوب إلى آخر، وما المصطلحات والمفردات الواردة في تعريفاتهم كالصرف واللي والانصراف والانتقال والعدول إلا صفات ونعوت لمصطلح الالتفات وأن معنى التحول والانتقال هو أهم مفهوم يرتبط بهذا المصطلح.

---

[39]. العلوي، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وحقائق الإعجاز، دار الكتب العلمية، بيروت، ج2، ص 131

[40]. المصدر نفسه، ج2، ص 132

بلاغة الأنماط الأسلوبية للالتفات القرآني:

إن وظيفة الالتفات في القران الكريم ترتبط بالمعنى والدلالة، وتسعى لتأسيس سياق لها، مما يؤدي إلى نشوء العلاقات المتبادلة أو المتحولة بين الدوال الالتفاتية (المتلفت عنه- المتلفت إليه) ضمن بنية تؤسسها الصورة الالتفاتية والتي تقع في أنماط ثلاثة (الضمائر، الفعل، العدد) وبهذا يصبح العمل بمجمله إشارات دلالية"[41] وهذا من خلال ما يحدثه الخطاب الالتفاتي "من تغيرات تركيبية على الدال اللغوي المرئي، والمعني هو الذي تطلب هذا التغيير والتبديل"[42] وهذا ما يسلم إلى معرفة وظائف أدائية للخطاب الالتفاتي في القرآن فهو يحقق وظائف تتنوع بحسب المقام ومقتضيات الأحوال فمنها تعظيم شأن المتكلم أو المخاطب، ومنها تقوية الشعور والحضور معا، إذ أن تقوية حضور الأشياء المتحدث عنها بواسطة الالتفات تحصل بالالتفات الفعلي"[43]، كما يحصل في مشاهد القيامة وذكر الجنة والنار وغيرها، وهذه الوظيفة تتصل باعتبار الشيء مدار الالتفات كأنه قد تحقق وقضي الأمر إيجابا له وإيذانا بصحة وجوده[44].

- الالتفات الضمائري:

سياق التحول من (سياق الغيبة/الخطاب، ومن سياق الخطاب /الغيبة)

جاء الالتفات من الغيبة إلى الخطاب (أو من الخطاب إلى الغيبة) في مواطن كثيرة في كتاب الله، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى:« وأذان من الله ورسوله إلى

---

41. عبد الله الغذامي، الخطيئة والتكفير (قراءة نقدية لنموذج إنساني معاصر) مقدمة نظرية ودراسة تطبيقية، النادي الأدبي الثقافي، ص 110.

42. عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، دار العربية للكتاب، ص 38.

43. عبد الله صولة، الحجاج في القران الكريم، ج1، ص 520

44. مجيد عبد الحميد ناجي، الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية، نقلا عن الإعجاز البلاغي في الخطاب القرآني ، لمازن موفق صديق الخيرو ، ص 76.

الناس يوم الحج الأكبر أن الله برئ من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم، وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم»[45]، ومحل الالتفات هو قوله تعالى: «فان تبتم فهو خير لكم» فالملتفت عنه تمثل في ضمير الغيبة (هو) والملتفت إليه (الخطاب) اتضح في إيراد ضمير المخاطب (انتم) وهذا النوع من الانتقال من الغيبة إلى خطاب له دلالاته الايجابية، في أن يكون المؤمن أوابا إلى الله تائبا إليه، متجنبا أعمال وأفعال المشركين الذين تبرأ الله منهم وكذا رسوله الكريم، وفي هذا الأسلوب الالتفاتي زجر وتحذير لمن يحيد عن الصواب من أن لا نجاة له إلا بالتوبة (فان تبتم) وفي ذلك التوفيق والخير (وهو خير لكم).

كما تجسد هذا الصرف أو التحول من الغيبة إلى الخطاب في بنية متفردة، جعلت الغيبة بين خطابين فالخطاب الأول في "تبتم" والخطاب الثاني في "لكم" والغيبة تجسدت فقط في نص الرسالة القرآنية والالتفات أحد تلك الآليات الموظفة للإبلاغ وان هذا النوع من سياقات الصورة الالتفاتية التحويلية لم يكن غريبا عن لغة العرب، فالعرب كثيرا ما تنصرف عن الغيبة إلى الخطاب، وعن الخطاب إلى الغيبة، وهو متسع في لغة القران، ولكن مقصدية مجيئه تختلف عن مقصدية العرب، إذ أن دوره القرآني رسالي وأسمى[46].

ومن النصوص القرآنية التي جاءت على هذا النمط ما ورد في سورة الفاتحة: «الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين»[47].

---

[45]. سورة التوبة، الآية: 03

[46]. مازن موفق صديق الخيرو، الإعجاز البلاغي في الخطاب القرآني، ص 57.

[47]. سورة الفاتحة، الآية 2-5

فالملتفت عنه في الآيات الكريمة، عبر عنها بالغيبة وذلك في قوله تعالى:«الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين» والملتفت إليه، عبر عنه تعالى بالخطاب في قوله عز وعلا:«اياك تعبد واياك نستعين» ومن ثم فان الانتقال حاصل من أنت إلى هو وان "هو" المتكلم (الله) سبحانه وتعالى، وقد جاء توظيف ضمير الغيبة، وكأن الصوت الغيبي جسر يمتد بين التجلي والخفاء، وبذلك نلاحظ تمثل موقع الإنسان بوصفه دلالة على موقع الله سبحانه وتعالى بوصفه خالقا [48].

أما بالنسبة لبنية سياق الخطاب ففيها محددات خطابية وهي (العبادة، والاستعانة)، وتتحدد بلاغة الصورة الالتفاتية من خلال تمايز بنيتين: بنية (الحمد) وبنية (العبادة/ الاستعانة) كبؤر دلالية محورية في السياقين وأنه إنما عدل فيه من الغيبة إلى الخطاب، لأن الحمد دون العبادة، ألا تراك تحمد نظيرك ولا تعبده؟ فلما كانت الحال كذلك استعمل لفظ "الحمد" لتوسطه مع الغيبة في الخبر، فقال "الحمد لله" ولم يقل "الحمد لك" ولما صار إلى العبادة التي هي أقصى الطاعات قال "إياك نعبد" فخاطب بالعبادة اصراحا بها، وتقربا منه عز اسمه بالانتهاء إلى محدود منها"[49]

ويرى ابن جني (ت 392 هـ) أن الصورة الالتفاتية ليست من باب الاتساع والتصرف وذلك في أثناء تناوله لنص سورة الفاتحة قوله "فليس ترك الغيبة إلى الخطاب هنا اتساعا وتصرفا، بل لأجر أعلى وذلك أن للحمد معنى دون العبادة ولأن العبادة غاية الطاعة والتقرب بها هو النهاية والغاية، ولم يقل

[48]. وليد منير، النص القرآني من الجملة إلى العالم، ص 47- 48 عن الإعجاز البلاغي في الخطاب القرآني، ص 59

[49]. ابن الأثير، المثل السائر، ج2، ص 137

لك، ولما صار إلى العبادة التي هي أقصى أمد الطاعة، قال "إياك نعبد" فخاطب بالعبادة اصراحا بها"[50].

ونلاحظ هذا التوافق في الفكرة والتعبير عند ابن حني وكذا ابن الأثير، من اتفاقهما في أن العبادة أعلى وأسمى من الحمد فوظف الخطاب للأولى والغيبة للثانية لما من تفاضل بين المعنيين.

وعلى نحو من ذلك جاء آخر السورة فقال "صراط الذين أنعمت عليهم..." فأصرح لما ذكر النعمة، ثم قال غير المغضوب عليهم عطفا على الأول، لأن الأول موضع التقرب من الله بذكر نعمه، فلما صار إلى ذكر الغضب جاء باللفظ وروى عنه لفظ الغضب تحننا و لطفا، فانظر إلى هذا الموضع، وتناسب هذه المعاني الشريفة التي لا تكاد تطؤها الأفهام وتدركها مع قربها، وهذه السورة قد انتقل في أولها من الغيبة إلى الخطاب لتعظيم شأن المخاطب، ثم انتقل في آخرها من الخطاب إلى الغيبة لتلك العلة بعينها، وهي تعظيم شأن المخاطب أيضا، لأن مخاطبة الرب تبارك وتعالى بإسناد الغضب إليه تعظيم لخطابه"[51]

ومما جاء في هذا السياق قوله تعالى : «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقران، ومن أوفي بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم»[52]

---

[50]. ابن جني، المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، نقلا عن الإيجاز البلاغي في الخطاب القرآني، ص 61.

[51]. ابن الأثير، المثل السائر، ص 137، 138

[52]. سورة التوبة، الآية 111

إن الخطاب الالتفاتي في هذه الآية القرآنية انتقل فيه الكلام من الغيبة إلى الخطاب، فاستعمل الملتفت عنه، في قوله تعالى: «إن الله اشترى من المؤمنين» بتوظيف الغيبة الموضحة في الضمير المستتر في الفعل "اشترى" وتقديره "هو" ومنتقلا بعد ذلك إلى الخطاب، في قوله تعالى:«فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به» بتوظيف الخطاب الموضح بتوجيه الأمر: استبشروا وكذا الضميرين "كم" في "بيعكم" وضمير الرفع المتحرك "تم" في قوله "بايعتم" كما أن "الصور الجزئية الواقعة في سياق الغيبة في بنية التلفظ –"الصورة الاستعارية" وذلك ماثل في قوله تعالى: «إن الله اشترى...» إن دلالة المسند الفعلي "اشترى" تتجاوز المستوى المفهومي إلى المستوى المجازي الذي يضيف إلى الفعل دلالات أخرى، إذ شبه الله سبحانه وتعالى هيئة بذل الأنفس والأموال تحت عنوان الجهاد بهيئة المتاجرة، فلفظ الشراء (متقاربة) أي للبذل، والمستعار منه هو هيئة المتاجرة والبيوع، أي استبدل لفظ الشيء المباع بأشياء معنوية وان افتتاح الكلام – "إنّ" التأكيد الخبر والاهتمام به. [53]

وتأتي الصورة الالتفانية في سياقها الخطابي في قوله تعالى: «فاستبشروا ببيعكم» إذ أن الله عز وجل يبشر المؤمنين الأتقياء الذين اختاروا سبيل الجهاد و باعوا أنفسهم وموالهم بأن الفوز هو حظهم أو مصيرهم الحتمي، ومن ثم أخرج – سبحانه وتعالى– الكلام من سياق الغيبة إلى الخطاب "ليفاجئ عباده المجاهدين بقرب حصول الفوز وتحصيل الثواب"[54]

كما تأكدت فاعلية الخطاب الالتفاتي في هذه الآية القرآنية مدعمة بمجموعة من وسائل الإقناع اللفظية ومتمثلة في:

[53]. محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية، ج11، ص 37 .
[54]. المصدر نفسه، ج11، ص 37.

أ. توظيف "إنّ وبأنّ" كحرفين لهما دورهما الفاعل في التأكيد وإزالة اللبس عن المتلقي للخبر.

ب. ورود مجموعة دوال تأكيدية على مستوى الخطاب البلاغي (الوعد، الحق، الوفاء) وقد جاءت بصيغة التتابع والتوالي النصي المنطقي، إذ يمثل الوعد مرحلة أولى وهو منعوت بكونه حقا لإخراج ما ليس كذلك ثم تأتي بعد ذلك عملية الوفاء به كمرحلة متقدمة، والخطاب الالتفاتي قدم و قرب الجزاء بالوعد.

- إثبات المبايعة في الكتب السماوية (التوراة والإنجيل والقرآن) بحسب الترتيب الإلهي لإنزالها، فعملية تقييد هذه المتابعة بالكتابة محور بالغ الأهمية لكونه دليلا على صحة وجود العقد أي عقد التعامل والمبايعة.
- إعطاء الجزاء والثواب بسرعة قصوى من خلال بنية التحول للصورة الالتفاتية سياق (الخطاب) عن طريق التصريح بالبشارة والفوز العظيم الذي لا مثيل له.[55]

ومن النصوص القرآنية المبرزة للخطاب الالتفاتي في سياق التحول من الخطاب إلى الغيبة، قوله تعالى: «أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور، أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير، ولقد كذب الذين قبلهم فكيف كان نكير»[56]

وتظهر معالم الصورة الالتفاتية في هذه الآية القرآنية لما لها من نسيج مترابط حيث يتصل الأسلوب الأول بالثاني "وأن تتحد أجزاء الكلام ويدخل بعضها في بعض، ويشتد ارتباط ثان بأول "[57] من خلال إيراد الملتفت عنه،

---

[55]. مازن موفق صديق الخيرو، الإعجاز البلاغي في الخطاب القرآني، ص 73

[56]. سورة الملك ، الآيات :16-17-18.

[57]. عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، ت :محمود محمد شاكر ،مكتبة الخانجي ،مصر ، ط3،1992 ، ص89.

المتضمن سياق الخطاب في" أأمنتم من في السماء "، ومتحولا بعد ذلك إلى سياق الغيبة في قوله تعالى:" ولقد كذب الذين قبلهم " وقد بدأ سياق الصورة الأولى " الخطاب " بالاستفهام " أأمنتم "، وهو إنكار توبيخي يفيد معنى ما كان ينبغي أن يكون، أي ماكان أن تكونوا في الأمان والاطمئنان وانتم تكذبون بالله، وقد تكر هذا الاستفهام مرتين في سياق الخطاب، وأما بالنسبة لسياق الصورة الثانية الذي يمثل بؤرة الصورة الالتفاتية سياق (الغيبة)، يظهر في قوله تعالى :" ولقد كذب الذين من قبلهم"، إذ كان الانزياح من الخطاب إلى الغيبة وهو يفيد على مستوى بلاغة الخطاب الإعراض عن هؤلاء الكفار بدلالة قوله أيضا :" فكيف كان نكير"، أي إنكاري عليهم بإنزال العذاب، أي كان على غاية الهول و الفظاعة "[58]

ومما يدرج ضمن هذا الضرب، قوله تعالى :" **إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ * وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ** "[59]

والأصل في " تقطعوا " تقطعتم "، عطفا على الأول، إلا أنه صرف الكلام من الخطاب إلى الغيبة على طريقة الالتفات " كأنه ينعي عليهم ما أفسدوه إلى قوم آخرين، ويقبح عندهم ما فعلوه، ويقول :" ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله تعالى، فجعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعا ؟، وذلك تمثيل لاختلافهم فيه، ثم توعدهم بعد ذلك بأن هؤلاء الفرق المختلفة إليه راجعون، فهو مجازيهم على ما فعلوا "[60]

---

[58]. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، لأبي الفضل شهاب الدين الالوسي، دار التراث العربي، بيروت، ج28، ص17.

[59]. سورة الأنبياء، الآية :92-93.

[60]. ابن الأثير، المثل السائر، ج2 ، 143.

ومما نلحظه في التعبير الالتفاتي القراني، أن "الملتفت عنه" والمتضمن سياق الخطاب في الآية في قوله تعالى :" إن هذه أمتكم ... ربكم ... " ثم تحول الخطاب القرآني إلى الغيبة في قوله عز وعلا :" وتقطعوا أمرهم بينهم "، وقد أؤيد هذا الصرف الضمائري بالتأكيد في بداية الآية باستعمال "إن " لتوكيد المعاني وترسيخها في الأذهان وكذلك استندت الآية إلى توظيف التكلم في قوله: "أنا ربكم ..." وكذا " إلينا راجعون" والغرض من كل ذلك الإقناع، بتلاحم الآيات أسلوبيا للتأثير في المتلقي .

ومما يجري على هذا النوع من الالتفات، قوله عز وجل:" **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ....**"[61]

فإنه إنما قال :" فأمنوا بالله ورسوله " ولم يقل :فأمنوا بالله ربي عطفا على قوله:"إني رسول الله إليكم" لكي تجري عليه الصفات التي أجريت عليه وليعلم أن الذي وجب الإيمان به والإتباع له هو هذا الشخص الموصوف بأنه النبي الأمي الذي يؤمن بالله وبكلماته كائنا من كان، أنا أو غيري، إظهار للنصفة، وبعدا عن التعصب لنفسه، فقرر أولا في صدر الآية أنه رسول الله إلى الناس، ثم أخرج كلامه من الخطاب إلى معرض الغيبة لغرضين هما:

الأول: منهما، إجراء تلك الصفات عليه.

والثاني : الخروج من تهمة التعصب لنفسه.

ونلمس في هذا العدول من ضمير المخاطب إلى ضمير الغائب آلية إبلاغية ترشد إلى الإصغاء والإستجابة .

[61]. سورة الأعراف، الآية :158.

الالتفات الفعلي أو(الزمني):

ويكمن الدور البلاغي للالتفات الفعلي في صور التحول المفضية إلى الإيحاء بالأفكار وتمثل الأحداث، من خلال خاصية التنويع التي اتسم بها القرآن حين الإنتقال في هذا النمط التعبيري من زمن إلى آخر.

ومن أهم أمثلة هذا النوع الرجوع من الفعل المستقبل إلى فعل الأمر :

ومثال ذلك قوله تعالى : "قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك، وما نحن لك بمؤمنين إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إني أشهد الله واشهدوا أنني بريء مما تشركون"[62]، فقد انتقل الخطاب الالتفافي من المضارع المستقبل "أشهد" إلى فعل الأمر "اشهدوا".

وما نجده في هذا السياق كذلك الرجوع من الفعل الماضي إلى فعل الأمر،مثل قوله تعالى:" قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون"[63] وحدث هنا الانتقال من الفعل الماضي "أمر" إلى فعل الأمر"أقيموا" و "ادعوه"،وسياق الخطاب استدعى هذا الانتقال للتنبيه والالتفات إلى أهمية الصلاة،كما قال ابن الأثير:" وكان تقدير الكلام أمر ربي بالقسط،وبإقامة وجوهكم عند كل مسجد فعدل عن ذلك إلى فعل الأمر للعناية بتوكيده في نفوسهم،فإن الصلاة من أوكد فرائض الله على عباده ثم أتبعها بالإخلاص الذي هو عمل القلب، إذ عمل الجوارح لا يصح إلا بإخلاص النية"[64].

---

[62] . سورة هود،الآية 53-54

[63]. سورة الأعراف،الآية 29 .

[64]. ابن الأثير، المثل السائر، ج2، ص 145.

أما ما تعلق بالقسم الثالث من الالتفات بالإخبار عن المستقبل بالماضي،وبالفعل الماضي عن المستقبل،ومثال ذلك قوله تعالى:" والله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فأحييينا به الأرض بعد موتها،كذلك النشور"[65]، فقد ورد في بداية الآية "أرسل" في الزمن الماضي،أما الفعل الثاني فهو: "تثير" بزمن المستقبل، ذلك لأن المستقبل هو الذي يتيح للقارئ تخيل حال الرياح المثيرة للسحاب، وكأنه حاضر أمامها، وقد عبر "ابن الأثير" عن هذا التفاعل الالتفاتي ألإبلاغي بقوله:"اعلم أن الفعل المستقبل إذا أوتي به في حالة الإخبار عن وجود الفعل كان ذلك أبلغ من الإخبار بالفعل الماضي،وذلك لأن الفعل المستقبل يوضح الحال التي يقع فيها، ويستحضر تلك الصورة حتى كأن السامع يشاهدها وليس كذلك الفعل الماضي " [66]والتخيل يقع كذلك مع الفعل الماضي، إلا أنه مع الفعل المستقبل أوكد وأشد، لأنه يستحضر صورة الفعل حتى كأن السامع ينظر إلى فاعلها في حال وجود الفعل منه[67]

فالفعل المستقبل إذن، من أهم الآليات الإبلاغية والحجاجية التي تسهم في جلب القارئ وإقناعه، أما الإخبار بالفعل الماضي عن المستقبل فمثاله قوله تعالى :"ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين"[68]

فالفعل الأول في الآية مضارع (مستقبل) وهو"ينفخ" أما الفعل الثاني فهو" فزع"، وجاء في الزمن الماضي والغاية من ورود الفعل الثاني بصيغة الماضي هو للدلالة على وجود الفزع وحدوثه فعلا، كما ذكر ذلك ابن الأثير بقوله:"فإنه،

---

(65).سورة فاطر،الآية 09.
(66). ابن الأثير، المثل السائر، ج2، ص 145.
(67). المصدر نفسه، ج2، ص137.
(68) سورة النمل، الآية 87.

إنما قال "ففزع" بلفظ الماضي بعد قوله "ينفخ" وهو مستقبل للإشعار بتحقيق الفزع وأنه كائن لا محالة،لأن الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعا به". [69]

فالفعل المستقبل يقنع المتلقي باستحضار الصورة وكأنها مشاهدة، أما الفعل الماضي فهو يقنع القارئ على وجود ذلك الفعل وتحقق حدوثه.

ونلاحظ كذلك في سياق استعمال المضارع بدلا من الماضي، في إطار تناول الموضوعات الطبيعية ،التي ترتبط ببديع صنع الله في الكون، و المراد من ذلك إفادة المتلقي باستمرار هذه النعم وتجددها حالا بعد حال، ومن أمثلة هذا النمط، قوله تعالى:"ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير" [70] فعبرت الصورة الالتفاتية بداية بالفعل الماضي" أنزل" ثم تحول الخطاب القرآني إلى المضارع للدلالة على التجدد في الفعل "تصبح" وقد اقترن ذلك بالخضرة والزينة.

وفي حالة كون "مدلول الفعل من الأمور الهائلة المهددة المتوعد بها،فيعدل فيه إلى لفظ الماضي تقريرا وتحقيقا لوقوعه " [71]، ومن ذلك ما جاء في مشاهد القيامة من وصف دقيق لوجوه البشر يوم الحساب، فيكون الجزاء من جنس العمل، فتبيض وجوه المؤمنين النضرة وتسود وجوه الكافرين ذات الغبرة، ويقول تعالى:"يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون" [72]

---

[69]. ابن الأثير، المثل السائر، ج2، ص 278.
[70]. سورة الحج ،الآية :63.
[71]. الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ،دار إحياء الكتب العربية،ج3 ،ص372.
[72]. سورة آل عمران ،الآيتان :106-107.

فهذا التوظيف الالتفاتي من استعمال للمضارع في (تبيض، تسود) ثم التحول إلى الماضي في(اسودت، ابيضت) مما يجعل المتلقي متيقنا من أن هذا الوعيد ولا شك نافذ كما أن "الفعل الماضي إنما يقوم مقام المستقبل في بعض المواضع على خلاف الأصل "[73]

إلى جانب أن التقابل في اللفظ والمعنى بين البياض والسواد أعطى للصورة الالتفاتية زخما تعبيريا متميزا .

الأغراض البلاغية للالتفات القرآني:

للخطاب الالتفاتي في القرآن الكريم أغراض بلاغية تشفى غليل الظامئ إلى تبين أسراره، واستكناه درره في مضامين قرآنية تشع معاني سامية، ترتدع لها العقول وتقبل عليها القلوب مذعنة خاشعة، ومن أمثلة تلك الأغراض الآتية:

1. التأكيد:

من شواهد ذلك، قوله تعالى: " ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا، إن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقتضيا "[74]، وقد أكد – سبحانه وتعالى– الورود على جهنم باستعمال لام التوكيد المقترنة بالضمير (نحن) للمتكلم المعظم نفسه، وكذا إردافه باسمي التفصيل "أعلم وأولى "، وقد تجسد الخطاب الالتفاتي المؤكد للفعل (الورود على جهنم).

في قوله تعالى :" وإن منكم إلا واردها "، وقد تحول فيها الخطاب من الخطاب (منكم) إلى الغيبة (واردها).

2. الامتنان:

---

[73]. ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، مطبعة المدني، ج1، ص225.

[74]. سورة الأعراف، الآية : 145.

ومن أمثلة القرآنية، قوله تعالى :" **ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ** "[75]

وجاء الخطاب الالتفاتي هنا بالانتقال من الغيبة إلى الخطاب في قوله :" **سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ** " وفي قوله " جعل " من خلال الضمير المستتر وتقديره "هو " يعود على الله سبحانه وتعالى وتمثل الخطاب في قوله " لكم "، وفي " تشكرون "

وقد من الله علينا بنعمه ظاهرة وباطنه (فهو خالقنا ومنشؤنا في أفضل صورة ومانح السمع والبصر والفؤاد لنا، ونحن مقصرون عن شكره، وهو المنان ذو الجلال والإكرام .

3. التشريف :

ويأتي التشريف والتقدير بالرفع من شأن المخاطب، في قوله تعالى :" **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** "[76] تشريفا له بهذا الخطاب، ويمكن تقديره بقولنا هم "**يَسْتَأْذِنُونَكَ**" .

5.التخويف والتذكير:

وأتضح هذا الفرض في مواطن عدة غير أن المثال على ذلك، في قوله تعالى " **ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آَخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ* ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ**"[77] إن انتقال السياق الالتفاتي من الغيبة إلى الخطاب مما يبعث على

---

[75]. سورة السجدة ، الآية : 09.
[76]. سورة النور ، الاية : 62.
[77]. سورة المؤمنون ، الآيتان : 14-15

الرهبة، والخوف، إذ أن التذكير بالموت مما يدفع المؤمن للتفكير في مصيره المحتوم، مما يدعوه إلى العمل والتقوى، وقد تمثل خطاب الغيبة في: الضمير (ها) في " **أَنْشَأْنَاهُ** "، وتحول بعد ذلك الخطاب في " **ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ** "، وبالأخص " **إِنَّكُمْ** " وقد أكد هذا باستعمال " لام التوكيد " في قوله " **لَمَيِّتُونَ** "

5.العتاب:

تمثل هذا الغرض إلا في الخطاب الالتفاتي القرآني، في **قوله تعالى** : " **وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ، إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ** "[78].

وتحول السياق من الغيبة في :"أزواجه، اظهر عليه، بعضه، نبأها" إلى الخطاب بعبارات هي :" أنباك، تتوبا، قلوبكما، ذلك، ....."

وفي هذا الانصراف من أسلوب الغيبة إلى الخطاب معنى التأنيب والعتاب، للتوبة إلى الله، فإن في ذلك أوبه، والله غفور لمن تاب وأناب.

إلى جانب أغراض بلاغية أخرى تستقى من سياق الكلام: كالتهديد والوعيد والمبالغة والتعجب، وغيرها وإن فائدة الالتفات أنه يضفي على الكلام طرافة وجدة وكذا إبداعا، فيصغى إليه لطرافته وجدته وقدرته على لفت انتباه السامع أو المتلقي للخطاب الالتفاتي عامة الخطاب الالتفاتي القرآني بشكل خاص.

الخاتمة:

[78]. سورة التحريم ، الآيتان : 3،4.

إن للالتفات وظائف عديدة ضمن الخطاب القرآني غير أن الوظيفة الدينية وكذا الوظيفة الجمالية والوظيفة التواصلية هي أهم الوظائف التي أداها هذا الفن اللغوي والبلاغي المتميز، وإن الالتفات الضمائري بوصفة أحد الأنماط الأسلوبية في القران الكريم كان وسيلة للإقناع وإيصال الحقائق الدينية، كما أدى الالتفات الفعلي دورا فاعلا على المستوى المشهدي من خلال استحضار المشهد الحدثي وخاصة ما تعلق بعالم الغيب كالبعث والحساب، وكل ما ارتبط بيوم القيامة، وعمل على تفعيل الأوامر والنواهي ضمن منظومة التكاليف الشرعية.

ومن ثم فإن الخطاب الالتفاتي في القرآن الكريم بسياقاته المتنوعة أدى دورا فاعلا في إيصال المعني وإضفاء المسحة الجمالية على اللغة القرآنية التي تحمل الغاية الرسالية بالإبلاغ البليغ.

قائمة المصادر والمراجع

[1]. ابن الأثير، المثل السائرفي أدب الكاتب والشاعر، قدمه وعلق عليه: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، نهضة مصر للطباعة والنشر.

[2] . الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، دارإحياء التراث العربي ، بيروت

[3]. حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ت محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الكتب الشرقية.

[4]. ابن جني، المحتسب في تبيين. وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، تحقيق :علي الجندي وعبد الحليم النجار ، وعبد الفتاح إسماعيل ، مصر.

[5]. الزمخشري، أساس البلاغة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2001 .

[6]. الزمخشري، الكشاف، دار إحياء التراث ، بيروت.

[7]. الزركشي، البرهان في علوم القرآن ،تحقيق :محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة البابي الحلبي ط2 ،1973 .

[8]. طالب محمد اسماعيل الزوبعي، من أساليب التعبير القرآني، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1996.

[9]. عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر جمعية الرعاية المتكاملة وزارة الثقافة والإعلام.
[10]. أبو عبيدة، مجاز القرآن، تحقيق :محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي ،ط1 ،1954 ، مصر.
[11]. العلوي، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وحقائق الإعجاز، دار الكتب العلمية، بيروت.
[12] . عبد الله الغذامي، الخطيئة والتكفير (قراءة نقدية لنموذج إنساني معاصر) مقدمة نظرية ودراسة تطبيقية، النادي الأدبي الثقافي.
[13] . عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، دار العربية للكتاب.
[14] . عبد الله صولة، الحجاج في القران الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، جامعة منوبة، كلية الآداب، تونس،2001.
[15]. ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، دار إحياء التراث العربيـ بيروت، ط1، 2001 .
[16]. فخر الدين الرازي، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق سعد سليمان حمودة، دار المعرفة الجامعية، كلية الآداب، جامعة الاسكندرية، 2003.
[17]. قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ت: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، مصر.
[18]. الكفوي، الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية)، مؤسسة الرسالة .
ابن منظور (جمال الدين بن مكرم الأنصاري)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، مادة "لفت"
[19]. المبرد، الكامل في اللغة العربية والأدب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ج3، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر.
[20]. ابن المعتز، كتاب البديع، انمثاطيوس كراتشفوفسكي، دار المسيرة،الأردن.
[21]. محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية.
[22]. مازن موفق صديق الحيرو، الإعجاز البلاغي في الخطاب القرآني، مكتبة دار البيان، ط1، 2010، دمشق، سوريا.
23. ناظم عوده خضر، الأصول المعرفية لنظرية التلقي، دار الشروق للنشر.
[24]. أبو هلال العسكري، الصناعتين، ت، علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1986.
25 ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، مطبعة المدني.
26. وليد منير، النص القرآني من الجملة إلى العالم، المعهد العالي للفكر.

27. أبو يعقوب السكاكي، مفتاح العلوم، ضبطه وعلق عليه :نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت.